

**ملتقى مركز الجزيرة للدراسات حول
العلاقات العربية الروسية
فبراير / شباط 2009**

روسيا والعالم العربي: دور الإعلام ماضيا وحاضرا

أحمد الشيخ

رئيس تحرير قناة الجزيرة الفضائية



في نوفمبر/ تشرين الثاني القادم تحل الذكرى العشرون لانتهاء حائط برلين وما تبع ذلك من تداعيات. انفرط عقد المعسكر الاشتراكي وتهاوت أنظمتها تباعا. وبعد سنتين بالتمام والكمال في نوفمبر/ تشرين الثاني 1991 أنزل العلم السوفيتي من على الكرملين ورفع العلم الروسي.

كنت آنذاك أعمل في الصحافة المطبوعة في الكويت وكم كان وقت كتابة عناوين الصفحة الأولى مثيرا وأنت ترى عالما جديدا يتشكل أمامك. عالم الرأس الأوحده.

يقول زبيغنيو بريجنسكي في كتابه الفرصة الثانية الذي فرغت للتو من قراءته: هاتف غورباتشوف تلك الليلة جورج بوش الأب وأبلغه أن الاتحاد السوفيتي انتهى فجمع بوش أركان إدارته ليعلن أمامهم عهد أميركا الجديد باعتبارها الإمبراطورية الوحيدة على رأس العالم.

وهكذا ولدت روسيا التي نتحدث عنها اليوم في إطار روسيا ما بعد الاشتراكية والقيصرية. لكن روسيا الكيان امتداد في التاريخ يسبق الاشتراكية والقيصرية وعلاقتها بالعالم العربي تسبق هذه الحقائق التاريخية أيضا.

كتب ابن فضلان قديما عن روسيا وأهوال الترحال في أصقاعها وسبقه إليها آخر خلفاء الدولة الأموية مروان بن محمد الذي كان يتنافس مع مبشر يهودي في التبشير بالإسلام بين قبائل الخزر الوثنية آنذاك عندما وقع الانقلاب العباسي على الأمويين فاستدعي مروان عله ينقذ الدولة. وبخروج مروان خلا الميدان للمبشر اليهودي فانقلب الخزر أو جزء كبير منهم إلى اليهودية ليهاجروا بعد ذلك في نهاية القرن العشرين إلى فلسطين المحتلة إسرائيل. فكم هو التاريخ مترابط الوشائج ويحيل السابق منه إلى اللاحق أو عليه.

لا أريد أن أوغل في التاريخ أكثر فغايتنا اليوم إعلامية. وإذا كان الإعلام مرآة للواقع أو ينبغي أن يكون فإن هناك من المشتركات بين الواقع الروسي والعربي ما يجعل من الممكن ومن المفيد والواجب تحقيقا للمصالح قيام تنسيق إعلامي أو قل تقاهما يخدم الطرفين. فما المشترك؟

أولا: العالم العربي في شماله وجنوبه هو أهم مصدر للطاقة والثروات المعدنية بالنسبة للغرب وكذلك روسيا التي تزود أوروبا بما تحتاجه من طاقة تبيت الدفء في أوصالها والحركة في مصانعها. وإن كان الغرب ينحى باللائمة على دول الخليج العربية لارتفاع أسعار الطاقة في السنوات الأخيرة قبل انهيارها فإنه يلوم روسيا أيضا لاستعمالها الطاقة ورقة سياسية. إذن فهما هدفان لمعسكر واحد.

ثانيا: التغلغل الغربي الليبرالي واليهودي ومحاولات السيطرة على الجانبين العربي والروسي. فعند العرب إسرائيل هي رأس الحربة وفي روسيا ظل أنصارها من أصحاب رأس المال اليهودي حتى عهد قريب أو ما زال بعضهم يتحكمون في مفاصل الدولة الاقتصادية والإعلامية والسياسية.

ثالثا: الرقعة الجغرافية مترامية الأطراف للجانبين تجعل منهما هدفا للتحرش والضغط الميداني. والفارق أن الأنظمة العربية تقدم القواعد للأميركيين مجانا أما روسيا فما زالت تقول لا وتلوح بما لديها من قوة للدفاع عن وجودها.

رابعاً: الجانبان هدف للتضليل الإعلامي الذي يشوه القضايا القومية والوطنية ويحاول استعمال ورقة حقوق الإنسان والديمقراطية ضدّهما تحقيقاً لمآربه.

هذه المشتركات تجعل من التنسيق الإعلامي غاية لخدمة المصالح وليس للتنافس. وان كانت روسيا افتتحت قناة ناطقة بالعربية فما أوج العرب إلى أن يخاطبوا الروس بلسانهم عبر قناة تلفزيونية عربية ناطقة بالروسية. فلو أن الواقع العربي المتشردم يسمح بذلك ولو كان بيدي شيء من الأمر عرضت على الروس شراكة إعلامية متبادلة يعرف عبرها الروسي والعربي واقع الآخر وثقافته وفنونه قبل أن يعرف سياساته ذاك أن التقارب الثقافي هو الأعمق والأبقى.

كيف نرى أداء المؤسسات الإعلامية الروسية اليوم؟

تاريخ روسيا مع العرب لا يقتصر طبعاً على ما ينفع العرب.. بعد سايكس بيكو بعقدين ونيف ثبتت البلاشفة أنفسهم إسرائيل في قلب فلسطين عبر اعترافهم بها في المنبر الأممي.

ويبقى النزاع قائماً لحد الآن على قصبة السبق في هذا الاعتراف بين واشنطن وموسكو وربما نكون كإعلاميين في حاجة إلى حد الآن لمن من زملائنا الروس يميظ اللثام عن حاجة روسيا ومصالحها إلى هذا الاعتراف المدوي بمظلمة إسرائيل. أقول كإعلاميين وليس كسياسيين، نحتاج فعلاً أن يكشف زملاؤنا الروس عن الوثائق الحقيقية التي تؤرخ لهذه "الحاجة" الروسية. هل كانت مثلاً مرتبطة بتفاهات يالطه؟ وكيف نفسّر لاحقاً إجماع السلطة السوفيتية عن السماح لليهود بالهجرة الجماعية إلى إسرائيل؟

روسيا كنز إعلامي والجزيرة تعي هذا الأمر وتخصص له من الإمكانيات الكثير. ولكن على الرغم ممّا شاب الحياة الروسية إثر الانهيار الكبير سنة 1991 من انفتاح فإننا نبقى في أمس الحاجة إلى معادل إعلامي لهذا الانفتاح.

نحن نعرف أن الفوضى التي عرفتها مرحلة الرئيس الراحل يلتسن تراكفت بتنظيم شديد للسيطرة على وسائل الإعلام الروسية من قبل أصدقاء إسرائيل بكل ما يعنيه ذلك من تزوير لحقائق منطقتنا في وعي المواطن الروسي.

عندما شرع الرئيس الروسي السابق فلاديمير بوتين بتنظيف روسيا من بعض أباطرة الإعلام الموالين لإسرائيل من أمثال بيريزوفسكي وغوسينسكي استبشر المراقبون العرب وظنوا ذلك بداية لوضع قاطرة الإعلام الروسي على سكة الحياد والموضوعية. إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث للأسف وكأن بيريزوفسكي لا يزال يسيطر على القناة الروسية الأولى... وكأن غوسينسكي لا يزال يحتكر قناة أن تي في (NTV) الروسية.

وخير دليل على ذلك تغطية الحرب الإسرائيلية على غزة في القنوات الروسية الناطقة باللغة الروسية لكي لا نظلم قناة روسيا اليوم الناطقة باللغة العربية والتي كان لها مكتب في غزة ونقلت صورة حية عن هذه الحرب.

ولكن السؤال الآن يقوم حول فلسفة الإعلام الروسية. موسكو وعت ضرورة الاتصال الإعلامي بالعالم العربي منذ عقود وأسست إذاعة صوت روسيا الناطقة باللغة العربية في عز الحرب العالمية

الثانية سنة 1943 . وروسيا ما بعد الاتحاد السوفيتي عادت واكتشفت هذه الضرورة وأسست قناة روسيا اليوم الفضائية التي بدأت بثها في مايو/ أيار 2007.

ولكن الذي حصل هو أن قناة روسيا اليوم تتوجه إلى المشاهد العربي لتخبره عن أحواله مثلا في غزة في حين أن العلاقات الإعلامية طريق سيار ذو اتجاهين ومن الأهمية بمكان بالنسبة إلى العرب أن يتم نقل صورة موضوعية عن أحوالهم إلى المواطن الروسي أيضا. غير أن القنوات الناطقة بالروسية ما تزال أسيرة اللوبي الليبرالي اليهودي وهي تعتمد على مراسليها من خارج غزة وظل المنطق نفسه سائدا في تغليب وجهة النظر الإسرائيلية في وسائل الإعلام الروسية وبدل أن يكون الخبر الرئيس عن التقتيل والتدمير أو الصمود الخرافي لأهل غزة فإن حيثية بسيطة مثل إعلان هدنة لمدة ثلاث ساعات يوميا يصبح مفصلا إعلاميا وكأنها هبة عظيما أن تقصف إسرائيل غزة طوال إحدى وعشرين ساعة وتمنحهم فرصة لعبور المساعدات الإنسانية خلال ثلاث ساعات. أليس هذا بعيب إعلامي يفتني أثر عيب سياسي؟

المصطلح الإعلامي في وسائل الإعلام الروسية هو الآخر في حاجة إلى مراجعة لأنه يستند إلى القاموس الإسرائيلي أو الأميركي في أحسن الأحوال وليس إلى القاموس الروسي المتميز، وإلا كيف نفسر تصريحات القيادة الروسية على أعلى مستوى بأن حركة حماس مثلا ليست حركة إرهابية بل هي حركة سياسية لا بد من التفاوض معها وكيف نفسر لقاءات لافروف وسلطانوف بخالد مشعل وأسامة حمدان في موسكو ودمشق في حين لا تكاد تذكر حماس أو المقاومة الفلسطينية في وسائل الإعلام الروسي إلا كرديف للإرهاب؟ وحماس هنا ليست سوى مثال على المقاومة العربية.

غزة مثال واضح ومدوي ولكنه ليس بالوحيد

نحن في الجزيرة لا نخفي اهتمامنا بروسيا ومكتبنا في موسكو يواكب الأحداث السياسية والثقافية وغالبا ما ندعمه بمراسلين من الدوحة أو من مكاتبنا في الدول المجاورة أثناء الاستحقاقات الانتخابية أو الأحداث الكبرى ولكن مكتبنا يحاول منذ سنة بأن يحصل على مقابلة تلفزيونية مع أحد القادة الروس ولكن دون جدوى.

بعد الحرب على القوقاز فضّل القادة الروس تهافت القنوات الناطقة باللغة الانجليزية على الكريملن وسوتشي ورفضوا منحنا أي مقابلة بدعوى أن الإعلام الغربي شوّه حقيقة حرب القوقاز وعليه فقد تمّت "مجازاته" بمنحه اللقاء تلو اللقاء من الرئيس ورئيس الوزراء ووزير الخارجية. أما الجزيرة والقنوات العربية والتي لم تتهم بتزوير صورة الحرب من قبل موسكو فقد رفضت طلباتها ومن ورائها الشعوب العربية التي وقفت عاطفيا مع الجانب الروسي.

على ماذا تقوم هذه العلاقات الإعلامية الروسية العربية إن كانت تتناسب عكسا مع التواصل الحقيقي بين الشعبين؟ لا بد من تصحيح المبادئ.

وزير الخارجية الروسي وعد مراسلنا في موسكو بمقابلة قبل جولته الشرق أوسطية الأخيرة وفي الموعد المحدد طلب القسم الإعلامي بوزارة الخارجية الروسية أن ننظم مقابلة الوزير مع مراسلنا في القاهرة بعد المحادثات مع الجانب المصري ولكن شيئا من ذلك لم يحصل.

العلاقات الإعلامية العربية الروسية في حاجة إلى إرادة ثابتة من أجل إعادة تأسيسها بما يتناسب والمصالح المشتركة بين الجانبين وبما يخدم أفق التعاون الإستراتيجي بين حضارتين تجد كل واحدة منهما نفسها محاصرة بالمطامع المعلنة وغير المعلنة.

أود في نهاية حديثي أن أعود إلى التفاؤل بمستقبل العلاقات العربية الروسية ولا يفوتني هنا أن أذكر برحلة ابن فضلان إلى بلاد الروس والصقالبة في الربع الأول من القرن العاشر الميلادي زمن الخليفة العباسي المقتدر. ترك ابن فضلان في مخطوطه معلومات وافية عن واقع الروس وغيرهم تعتبر لحد الآن أهم المصادر عن تاريخ تلك المنطقة في تلك الفترة وهذا أيضا من صميم الإعلام وهو ما يمكن أن نعتبره أساسا تاريخيا صلبا لعلاقتنا الإعلامية العربية الروسية.

تقول هذه الأسطورة إن الأمير فلاديمير، أمير روسيا الكيفية نسبة إلى مدينة كييف عاصمة أوكرانيا الحالية وهي أم المدن الروسية، تقول الأسطورة إن الأمير فلاديمير عندما أفاق من سباته الجاهلي وأراد أن يتخذ لروسيا ديناً توحدياً استدعى ممثلين عن الأديان السماوية الثلاثة وكان من بينهم شيخ مسلم ويقال إن الأمير فلاديمير قد استأنس كثيراً بفكرة الزواج بأربعة نساء ولكنه رفض فكرة تحريم الكحول وقرر سنة 988 م اعتناق المسيحية فأُنزل رعيته إلى نهر دنيبرو قائلاً إن من آمن فهو آمن ومن لم يفعل فسيقضي عرقاً.

لا تخبرنا الأسطورة عن بقية الحوار الذي دار بين الشيخ والأمير لأن تعدد الزوجات وتحريم الخمر ليست أهم ما في الإسلام وليست من أركانه الخمسة. وهنا نرى فراغاً إعلامياً في الأسطورة لا نستطيع لسوء الحظ ملأه الآن. ولكن إذا كانت الأسطورة تحتل هذا الفراغ الإعلامي وتبقى في ظله محافظة على تماسكها فإن أي فراغ في العلاقات الإعلامية العربية الروسية اليوم قمين بأن يخلد عرجها الراهن.

هذه إذن دعوة لملء هذا الفراغ في علاقتنا بمحتوى إعلامي موضوعي يكون معادلاً لسائر علاقتنا التي أرى أن لها من فرص الإشعاع الكثير.